﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠﴾

[هود: 30]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عـلى شاكلة ما سبق، رَدُّ شُبهَةٍ أُخرَى مِن شُبُهاتِ صَلَفِهِم في أمـرِهِ بطَردِ المُؤمِنينَ بِهِ

جاءَ قولُهُ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ رَدًّا آخَرَ على عِنادِهِم وعُتوِّهِم، ففي الآيَةِ السّابِقَةِ بَيَّنَ لَهُم عَدَمَ حاجَتِهِ إلَى ما لَدَيهِم مِن مالٍ أو عَطاءٍ على دَعوَتِهِ لَهُم وإنْذارِهِ إيّاهُم؛ لأنَّ ثَوابَهُ وجَزاءَهُ مِن اللّه تعالى، وردَّ على دعوتهم إيّاه طرْدَ الَّذين آمنوا من مجلسه، لكونهم فقراء لا يدانون مكانتهم؛ إذ هم أغنياء ومن عِلية القوم، فأبى أن يجيبهم إلى طلبهم ونفاه نفيًا مؤكَّدًا، ووصفهم بالجهل المركَّب في طبعهم، بعد ذلك بيَّن لهم سبب رفضه هذا، لعلَّهم إن علموه؛ أفاقهم من غيِّهم، وهذا السبب هو خَوْفهُ مِن عقابِ اللّه تعالى؛ إذا طَرَدَ عباده المؤمنين من مجلسه، أو أساءَ إلَيهِم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنصُرُنِي﴾: قال الرّاغِبُ: "النَّصْرُ والنُّصْرَةُ: العَوْنُ، ونُصْرَةُ اللّه لِلعَبدِ ظاهِرَةٌ، ونُصْرَةُ العَبدِ للّه هوَ نُصرَتُه لِعِبادِهِ، والقيامُ بحفظِ حُدودِهِ، ورِعايَةُ عُهودِهِ، واعتِناقُ أحْكامِهِ، واجتِنابُ نَهيِهِ"[1]. والمراد هنا: يَحميني، ويُجيرُني مِن عَذابِ اللّه.

2) ﴿طَرَدتُّهُمۡۚ﴾: الطَّردُ الإبعادُ والمَنْعُ، جاءَ في المُفرَداتِ: "الطَّرْدُ: هوَ الإزعاجُ والإبعادُ على سَبيلِ الاسْتِخْفافِ، يُقالُ: طَرَدْتُهُ، ويقال: أطْرَدَهُ السّلطانُ، وطَرَدَهُ؛ إذا أخرجَهُ عَن بَلَدِهِ، وأمرَ أنْ يَطْرُدَ مِن مَكانِ حِلِّهِ"[2]. والمراد: إن أبعدتهم عن مجلسي.

(1) الرّاغب، المفردات: (نصر).
(2) الرّاغب، المفردات: (طرد).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُبيِّنُ نبيُّ اللّه نوحٌ ﷺ في هذا القولِ بعد نِدائِهِ على قومِهِ، فيُضِيفُهُم إلى نفسِهِ أن لا أحد يستطيعُ منع عِقابِ اللّه عنهُ إن طرد هؤلاءِ المُؤمنين بهِ، وكيف تُصِرّونَ على جهالتِكم بعدما بيّنتُ لكُم، ولا تتذكّرون أنّ لِهؤلاءِ المؤمنين ربًّا ينصُرُهُم، وينتقِمُ لهُم، وهُم أكرمُ عِندهُ ﷻ مِنكُم، فكيف إذًا يحِقُّ لي أن أطردهُم؟ أفلا تتذكّرون، وتتّعِظون؟ فإنّهُم يُفوِّضون أمرهُم إلى من لهُ العظمةُ، ولو لم يشكني إليهِ لِاطِّلاعِهِ على ما دقّ وعظُم.

المُؤمِنُ الحَقُّ، يَخافُ عِقابَ اللهِ، إنْ تَجاوَزَ في حَقِّ العِبادِ أو ظلمهم

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ العَطفِ في قَولِهِ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾:

وجَّهَ نوحٌ ﷺ نِداءً ثالثًا لِقومِهِ لَعَلَّهُم يَفيئونَ إلَى رُشْدِهِمْ رَدًّا على قَولِهِم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: 27] فعَطَف جُملَةَ ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ على ما سَبَقَ في قَولِهِ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وهَذا مِن بابِ عَطفِ الجُمَلِ.

طَرْدُ المُؤمِنينَ الفُقَراءِ من مجالس الأنبياء، غير مقبول، وقد بعثهم الله رحمة لا نقمة

وفيهِ بَيانٌ لِعُقوبَةِ طَرْدِهِ هَؤلاءِ المُؤمنينَ التي يستحقها لو أنَّه أطاعهم، وفعل هذا، وإتمامٌ لِلفائِدَةِ حِيْنَ وصَفهُمْ بالجَهْلِ، حيث أقرَّ لهم أنْ لا ناصِرَ لَهُ مِن اللّه إذا فعَل فِعْلَتَهُ تلكَ، وهيَ طَرْدُ هَؤلاءِ المُؤمِنينَ الفُقَراءِ مِن مَجلِسِهِ، فمَنْ ذا يَحميهِ، ويُجيرُه مِن عَذابِ اللّه تعالى؟

سِرُّ تَكرارِ المُنادَى (قَوْمِ):

تَلطُّفٌ زائدٌ مِنْهُ ﷺ لبيان رحمة الله المودعة في قلبه

جاءَ النِّداءُ بلَفْظِ (قَوْمِ) تَلَطُّفًا بهِم، وحُنوًّا عَلَيهِم؛ لِأنَّهُ - كَما ذَكَرْنا - أنَّ قومَ الرَّجُلِ هُمْ أقْرَبُ النّاسِ إلَيهِ، وهُم الَّذينَ يعْنيهِ أمرُهُمْ مَعَ رَجاءِ الخَيْرِ والنَّفعِ لَهُم، فـ" قولُهُ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾ هَذا خِطابٌ في غايَةِ التَّلَطُّفِ بهم"[1].

(1) الصّاوي، حاشية على تفسير الجلالين: 7/118.

سِرُّ إضافةِ المُنادَى إلى ياءِ المُتَكَلِّمِ:

جاءَ لَفظُ (قَومِ) المكرَّرُ هُنا في القِصَّةِ مَنْسوبًا ومُضافًا إلَيهِ ﷺ مُرادًا بهِ التخصيصُ، فهُمْ قَومُهُ الأقرَبونَ، والَّذينَ أُرسِلَ إلَيهِم خاصَّةً، فهُم أولَى النّاسِ باتِّباعِهِ، وإنَّما أضافهُم إلَيه مِن بابِ اسْتمالَةِ قُلوبِهِم شَفقَةً عَلَيهِم وبِرًّا بعَهْدِ القُربِ والصِّلَةِ الَّتي تَربِطُهُ بهِم، فعَلَيهِم أنْ ينزَجِروا، ويَكُفّوا عَمّا هُمْ فيهِ.

اسْتِمالَةٌ كُلُّها رَحْمَةٌ وشَفقَةٌ، تَعبِّرُ عن خفض الجناح للمؤمنين

الغَرضُ مِن الاسْتِفهامِ في سياقِ الآيةِ:

في قوله: ﴿مَن يَنصُرُنِي﴾ استفهامٌ إنْكاريٌّ متضمِّن معنى النَّفي، أي: لا أحد ينصرني من ذلك، "والنَّصْرُ: إعانَةُ المُقاوِمِ لِضِدٍّ أو عَدوٍّ، وضُمِّنَ مَعْنى الإنْجاءِ، فعُدّيَ بـ (مِنْ)، أيْ: مَنْ يُخَلِّصُني؟ أيْ: يُنْجيني مِنَ اللهِ، أيْ: مِنْ عِقابِهِ؛ لِأنَّ طَرْدَهُمْ إهانَةٌ تُؤْذيهِمْ بلا موجِبٍ مُعْتَبَرٍ عِنْدَ اللهِ، واللهُ لا يُحِبُّ إهانَةَ أوْلِيائِهِ"[1].

اللَّهُ تعالى لا يُحِبُّ إهانَةَ أوْلِيائِهِ، بل إنَّهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون

أو أن يكون الاستفهامُ "بمعنَى التَّقريرِ والتَّوقيفِ، أي: لا ناصِرَ يَدفعُ عَنّي عِقابَ اللهِ إنْ ظَلَمتُهُم بالطَّرد عَن الخَيرِ الَّذي قَبِلوه، ثُمَّ وقفهُم بقَولِهِ: أفلا تَذَكَّرونَ؟ وعَرَضَ عليهم النَّظَرَ المُؤدّي إلَى صِحَّةِ هَذا الاحتِجاجِ"[2].

دلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعلِ المُضارِعِ ﴿يَنصُرُنِي﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بالفِعلِ المُضارِعِ في قَولِهِ: ﴿مَن يَنصُرُنِي﴾ دلالةً على نفي أن يستطيع أحد أن ينصره من اللهِ تعالى نصرًا متواصلًا متجدِّدًا؛ لأنَّ النُّصرَةَ والمَنَعَةَ لا تكون إلّا مِن اللهِ تعالى وكذا الحِمايَةَ لا تكون إلّا مِنهُ ﷻ أمّا أنتم؛ فلا تستطيعون أن تجيروني من عذاب اللهِ إن أراد معاقبتي على طردي المؤمنين، فإذا التَزَمَ العبدُ حُدودَ ربِّه فاللهُ وحده هو ناصره، أمّا إذا خالَفها، وتَعَدّاها؛ فلا حاميَ لَهُ

تَجَدُّد الاتِّباعِ يَجلِبُ تَجَدُّدَ النَّصرِ، وبِتَجدُّدِ المُخالَفةِ يَتَجَدَّدُ العِقابُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/56.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/165.

ولا مُناصِرَ، فمَعَ تَجَدُّدِ الاتِّباعِ يَقَعُ النَّصرُ، وتوجَدُ الحمايَةُ، ومَعَ تَجَدُّدِ المُخالَفةِ يَتَجَدَّدُ العِقابُ، ولا مُدافعَةَ مَعَهُ حينَئذٍ.

مَعْنَى حَرفِ الجَرِّ (مِن) ودِلالَتُهُ في قَولِهِ: ﴿مِنَ ٱللَّـهِ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بقَولِهِ: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾، و﴿مِنَ﴾ هُنا حَرْفُ جَرٍّ داخِلٌ على مَحْذوفٍ، أي: مِنْ عِقابِ اللهِ وعَذابِهِ، لِبَيانِ كَونِ مَصدَرِ هَذا العَذابِ هوَ عِصيانُ أوامِرِ اللهِ تعالى لِأَنَّهُ هوَ الَّذي يَملِكُ، ويَقْدِرُ على العِقابِ وغَيرِهِ، والتَّعبيرُ بهَذا الأُسلوبِ فيهِ مَزيدُ زَجرٍ وتَخويفٍ لِلمُتَعرِّضِ لِهَذا العِصيانِ، فمَن ذا يُجيرُ مِن عِقابِ اللهِ إنْ نَزَلَ؟ وميزانُهُ تعالى في تَقويمِ النّاسِ لَيْسَ كَميزانِ البَشَرِ، وأُسنِدَ النَّصرُ والمَنَعَةُ إلَيهِ سبحانه تَهويلًا لِلأمرِ الَّذي طَلَبوهُ، وهوَ طَرْدُ هَؤلاءِ المُؤمِنينَ.

عصيانُ أوامِرِ اللهِ تعالى، جالِبٌ لِعِقابِهِ لا محالة

دَلالَةُ التَّعبيرِ باسْمِ الجَلالَةِ ﴿ٱللَّـهِ﴾:

أكَّد نوحٌ عليه السلام كَلامَهُ بأنَّه لا يستطيع أحد نُصْرَتَهُ مِن اللهِ تعالى لو طرد عباده، وأوثر التعبير بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه إذا أُطْلِقَ اسْمُ الجلالةِ (اللهِ)؛ كانَ لِتَربيَةِ المَهابَةِ في النُّفوسِ، ولِيَكونَ ذَلِكَ التصريح باسمه الجليل زَجرًا وتَخويفًا لكونِهِ صاحِبَ القوة والقُدرة، بعَكسِ التَّعبيرِ باسْمِ (الرَّبِ) الَّذي يَأتي في سياقِ الرَّحمَةِ والتَّذكيرِ بالنِّعَمِ.

تضمَّن العبارة الزَّجرَ والتَّخويف لِأهلِ الجَورِ والحيف

الغَرَضُ مِن التَّعبيرِ بأُسلوبِ الشَّرطِ في الآيةِ:

ورَدَ التعبيرُ هُنا بقَولِهِ: ﴿إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ الدّالِّ على الشَّرطِ غَيرِ المَقطوعِ بوقوعِهِ؛ لأنَّه عليه السلام لم يكن ليفعل هذا، فلذا ساق جملة الشرط بحرف التقليل ﴿إِن﴾ دون (إذا).

ويمكن حمل الشَّكِّ الذي تفيده (إنْ) محملًا آخر كَأنَّه عليه السلام صارَ شاكًّا فيما يطلُبونه مِنهُ، أي: لِماذا هَذا الأمرُ خاصَّةً، وهوَ إبعاد المُؤمِنينَ الفقراءِ مِن مجلسه، وإصرارُهم على أنَّ إيمانَهم لَن يَتَحَقَّقَ إلّا بتَنفيذِ هَذا الشَّرطِ؟ كَما أنَّ التَّعبيرَ بـ ﴿إِن﴾ يُفيدُ أنَّه عليه السلام

بيانُ أنَّ الفُقَراءَ المُؤمِنينَ في مُجاوَرَةٍ دائمَةٍ لِأنْبيائِهِم المرسلين

لَن يُقْدِمَ على هَذا الأمرِ أبدًا، كما مضى ذكره، ففيه تَيْئِيسٌ لَهُم وصَرفٌ لَهُم أنْ يَتَعَلَّلوا بأمرٍ غَيرِ هَذا.

دَلالَةُ التَّعبيرِ بفعِلِ الشَّرطِ ماضيًا ﴿طَرَدتُّهُمْ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ الماضي في ﴿طَرَدتُّهُمْ﴾ الدالِّ على تَحَقُّقِ الوقوعِ مِن طَرَفِهِ ﷺ مِن بابِ المُجاراةِ لِطَلَبِهِم، والمُرادُ: أتَظُنونَ أنْ يَقَعَ مِنّي طَردٌ؟ ولو وقَعَ؛ فهَلْ أنْتُمْ ناصِروني؟ فهوَ يَنْفي أنْ يَقومَ بهذهِ الفِعلَةِ النَّكراءِ بأرقَى أُسْلوبٍ ليَقودَهُم إلَى التَنبُّهِ والتَّعقُّلِ والرُّجوعِ عَن طَلَبِهِمْ.

مُجاراةٌ مَخمودَةٌ، تَستَدعي التَّعَقُّلَ والرُّجوعَ إلى سبيلِ الرُّسلِ المعهودة

سِرُّ حَذْفِ جوابِ الشَّرطِ:

حُذِفَ جوابُ الشَّرطِ مِن قَولِهِ: ﴿إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ لِدَلالَةِ ما قبلَهُ عَلَيهِ، والمَعْنَى: إنْ طَرَدتُّهُم؛ فمَن يَنْصُرُني إذًا؟ وفي حذف الجوابِ - بعد الاختصار والإيجاز - إلماعٌ على عدم وجود النَّصر مع طرد المؤمنين، فغاب من النص ما غاب عن الواقع، ليشاكل النص مع الواقع.

بروزُ مشاكلةِ النَّصِ للواقعِ، حيث يغيب من هذا ما غاب من ذاك

الغَرَضُ مِنَ التَّعبيرِ بأُسلوبِ الاسْتِفْهامِ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾:

قَولُهُ: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ لَمّا تَمَّ الجَوابُ عَن ازْدِرائِهِم؛ سَبَّبَ عنهُ الإنْكارَ لِعَدَمِ تَذَكُّرِهِمْ ما قالهُ لَهُم بما يَجِدونَهُ في أنْفُسِهِم، فقالَ: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾"[1]، فقد: "فرَّعَ على ذَلِكَ إنْكارًا على قَوْمِهِ في إهْمالِهِمُ التَّذكُّرَ، أي: التَّأمُّلُ في الدَّلائِلِ ومَدْلولاتِها، والأسْبابِ ومُسَبِّباتِها"[2]، والاسْتِفهامُ "لِتَوْبيخِهِم وزَجرِهِم، والجُملَةُ مَعْطوفةٌ على مُقدَّر.

إهْمالُ الكفرةِ للتَّذَكُّرِ، مَدْعاةٌ لِلتَّعَجُّبِ من التنكُّر

سِرُّ حَذفِ المَعطوفِ وتَقديرُهُ في: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾:

الهَمزَةُ في قَولِهِ: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ لِلاسْتِفهامِ الإنْكاري، وهي إمّا داخِلَةٌ على مُقَدَّرٍ، تَقْديرُهُ: أتَأمُرونني بطَرْدِهِم، فلا تَذَكَّرونَ؟

إسقاطُ طلبهم من الوجود، وجعله في حكم غير الموجود

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور: 5/275.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/56.

وإمّا مُقَدَّمَة مِنْ تَأخيرٍ، والأصلُ: فألا تَذَكَّرونَ، وقُدِّمَتِ الهَمْزَةُ على الفاءِ؛ لِأَنَّ لَها الصَّدارَة"[1]، وفي حذف المعطوف إسقاطٌ لأي طلب منهم وإدخاله في حكم المعدوم.

دَلالَةُ التَّعبير بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ مُخَفَّفًا مِن الإدغامِ:

مغبَّةُ الجَهل المُستَمِرِّ، وعَدَمُ التَّذَكُّر والتَّبصُّر

الفعل ﴿تَذَّكَّرُونَ﴾ مضارع حُذفت منه إحدى التاءين، "وأَصْلُهُ: تَتَذَكَّرونَ، فأُبْدِلَتِ التّاءُ ذالًا، وأُدْغِمَتْ في الذّالِ (تذَّكَّرون). وقَرَأَهُ حَفْصٌ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتَخْفيفِ الذّالِ وبِحَذْفِ إحْدى التّاءَيْنِ"[2].

والمعنى: "أَتَسْتَمِرُّونَ على ما أنتُم عَلَيهِ مِن الجَهلِ المَذكورِ، فلا تَتَذَكَّرونَ ما ذُكِرَ مِن حالِهِم حَتَّى تَعرِفوا أنَّ ما تَأتونَهُ بمَعْزِلٍ عَن الصَّوابِ، ولِكَونِ هذه العِلَّةِ مُستَقبَلَةً بوجهٍ مَخصوصٍ ظاهِرِ الدَّلالَةِ على وُجوبِ الامتِناعِ عن الطَّردِ، أُفرِدَتْ عَن التَّعليلِ السّابِقِ، وصُدِّرَتْ بـ ﴿وَيَٰقَوْمِ﴾"[3]، والتَّعبيرُ بالفعلِ المُضارِعِ مفيدٌ للتَّجدُّدِ والاستمرارِ واستحضارِ حالَتِهِم الماضيَةِ، فعَدَمُ التَّذكُّرِ عِنْدَهُم مُتَجَدِّدٌ ومُلازِمٌ لَهُم، لا يَنقَطِعُ عِنْدَهُم أبَدًا.

(1) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/342.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/56.
(3) إرشاد العقل السّليم: 4/203، روح المعاني: 12/42.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 20 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-17-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 20 : المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-17-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6073958 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»